Book Summary:

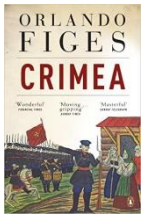

Orlando Figes, Crimea: The Last Crusade Orlando Figes, Penguin Books; 1st Edition, 2011, ISBN-13: 978-0141013503

Crimea: The Last Crusade Orlando Figes

موقعة القرم آخر الحروب الصليبية -رلاندو فايجز

عرض وترجمة: د. عبدالحميد عليوة

[1] Linguistics and Translation, Al-Azhar University, Cairo, Egypt; eleewah@gmail.com
* Correspondence: e-mail@e-mail.com; Tel.:

Published: 2021

نشر ها الكتاب في عام 2010 وتحدثت عنه الصحف البريطانية والأمريكية كعادتهم فور صدور مثل هذه الكتب. قرأت الكتاب الذي يحتوي على 550 صفحة. وأرى أنه كتاب مهم. قمت بتلخيص الكتاب وترجمته وسأنشره هنا فقد يفيد أحدا: من مقتطفات هذا الكتاب:

In the words of Tsar's leading missionary, Archimandrite Uspensky, who had led the ecclesiastical mission to Jerusalem in 1847, 'Russia from eternity has been ordained to illuminate Asia and to unite the Slavs. There will be a union of all Slav races with Armenia, Syria, Arabia and Ethiopia, and they will praise God in Saint Sophia.'

ومن كلمات أرشيماندريت أوزبنسكي الذي قاد الإرسالية التبشيرية إلى القدس في عام 1847: "فرض على روسيا من الأزل أن تنير آسيا وتوحد السلاف. سيتحد كل أجناس السلاف مع أرمينيا وسوريا وجزيرة العرب وأثيوبيا، وسيمجدون الرب في سانت صوفيا".

تمهيد

هناك الكثير من الكتب في اللغة الانجليزية التي تناولت حرب القرم التي حدثت عام 1854 حتى 1856 بين روسيا وتحالف يتكون من بريطانيا وفرنسا والإمبراطورية العثمانية، ولكن هذا هو أول كتاب من نوعه يستند إلى المصادر الروسية والفرنسية والعثمانية إلى جانب المصادر البريطانية حتى تتجلى العوامل الدينية والثقافية والسياسية التي دفعت القوى الكبرى في ذلك الوقت إلى التدخل في هذا الصراع. فهذه الحرب تعد نقطة التحول في تاريخ أوروبا، وروسيا، والشرق الأوسط وما زلنا نتجرع عواقبها حتى الآن، ولا مجال للنظرة البريطانية السائدة أن تلك الحرب كانت بلا معنى وغير ضرورية، ويرجع قولهم هذا لعدم رضا شعوبهم عن إدارة الحملة الحربية وإنجازاتها المحدودة.

دخل كل فريق الحرب بدوافعه القومية والتوسعية ومعها مصالحهم الدينية، فبالنسبة للأتراك كانت مسألة قتال عن إمبراطوريتهم الممزقة في أوروبا، ودفاع عن سيادتهم التوسعية ضد مزاعم روسيا في تمثيلها النصارى الأرثوذكس القاطنين في الإمبراطورية العثمانية، ولكبح تهديد قيام ثورة إسلامية قومية في العاصمة التركية. وادعى البريطانيون أنهم دخلوا الحرب للدفاع عن الأتراك ضد إهانات الروس، ولكن دافعهم الحقيقي في واقع الأمر هو توجيه ضربة إلى الإمبراطورية الروسية التي كانوا يخشونها كمنافس

لهم في قارة آسيا، ولكي يستغلوا الحرب أيضا لتوسيع أسواقهم وأغراضهم الدينية في الإمبراطورية العثمانية، أما بالنسبة للإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث فقد كانت الحرب فرصة لاستعادة هيبة فرنسا ونفوذها في الخارج، وكانت الحرب بالنسبة للبريطانيين والفرنسيين معا حربا صليبية للدفاع عن الحرية والحضارة الأوروبية ضد الخطر البربري الدكتاتوري من قبل روسيا، والذي مثل توسعها العدائي تهديدا حقيقيا ليس فقط للغرب ولكن للمسيحية بأكملها.

أما إمبراطور روسيا والذي يتحمل المسؤولية الأكبر فقد كان يدفعه الغرور كونه قد أمضى 27 عاما في الحكم وشعوره بمدى قوة روسيا بين جيران ضعفاء، وربما لحساباته الخاطئة عن رد فعل القوى الأخرى، وعلاوة على ذلك فقد كان يعتقد أنه يخوض حربا دينية صليبية لتحقيق رسالة روسيا للدفاع عن النصارى في الإمبراطورية العثمانية. لقد أقسم إمبراطور روسيا أن يجابه العالم كله برسالته المقدسة لتوسيع إمبراطوريته الأرثوذكسية حتى القسطنطينية والقدس .

الفصل الأول: الحروب الدينية

كان الحجاج يقدمون إلى القدس فيمضون أسابيع في عطلة عيد الفصح، يأتون من أنحاء أوروبا الشرقية والشرق الأوسط (من مصر وسوريا وأرمينيا والأناضول واليونان) وكان يأتي أكثرهم من روسيا. يبحرون حتى ميناء يافا ثم يستأجرون دوابا تحملهم إلى هناك. كانت القدس تعج بالحجيج في العاشر من ابريل كل عام وتزدهر التجارة حيث يتزاحم الناس على إيجاد موضع لبضائعهم من فاكهة وخضار ومطرزات ومسابح يبيعونها للسياح الأوروبيين. ولكن ما حدث في عام 1846 أن جاء عيد الفصح في نفس التاريخ حسب التقويم الكاثوليكي والأرثوذكسي فازدحمت الأماكن المقدسة أكثر من ذي قبل، وبدأ التوتر واختلف الفريقان حول من يحق له القيام بالشعائر داخل كنيسة القيامة حيث موضع صلب المسيح، واشتد الخلاف بين الفريقين بعدها مما دفع محمد باشا والي القدس إلى نشر عسكر داخل الكنيسة وخارجها للحفاظ على النظام، ولكن لم يوقف هذا اشتعال القتال بين الفريقين .

وذات عام جاء القساوسة الكاثوليك فوجدوا الأرثوذكس قد سبقوهم إلى هناك، فطلبوا منهم مرسوما من سلطان القسطنطينية يخول لهم القيام بشعائرهم أولاً وطلب منهم الأرثوذكس نفس الأمر فتحولت الكنيسة إلى ساحة معركة، واقتتلا الفريقان بما وجدوه معهم بالصلبان والعصي والسكاكين حتى بالأسلحة النارية فخلفوا أكثر من 40 أربعين قتيلا.

بعدها بدأ التنافس بين الكنائس المختلفة على النفوذ في الأرض المقدسة بشراء الأراضي وتكليف إرساليات بمساعدة حجيجهم وتأسيس المدارس لتحويل الأرثوذكس العرب إلى الكاثوليكية وإنشاء القنصليات والمستشفيات، وبدأت أعداد الحجيج الأرثوذكس القادمون من روسيا تفوق أعداد الطوائف الأخرى، حتى كان منهم من يأتي سعيا على قدميه من هناك، فضج الأوروبيون من تغلغل الروس في القدس ومن الشائعات التي ترددت عن إمكان روسيا تسليح عشرة آلاف حاج داخل أسوار القدس .

ومن ناحية أخرى كان ضم روسيا للقرم في عام 1783 ضربة موجعة للأتراك فقد كانت أول أرض إسلامية تتخلى عنها الإمبراطورية العثمانية للنصارى فكان يراه المسلمون حينها خطرا مهلكا للإمبراطورية العثمانية حيث يمكن للروس استخدامها كقاعدة عسكرية يهددون منها القسطنطينية وقبضة العثمانيين على البلقان وطالبوا بالحرب لاستعادتها، ولكن لم يكن من الحكمة بالنسبة للترك أن يخوضوا الحرب وحدهم .

وقد كان غزو الروس للقوقاز جزءا من هذه الحرب الصليبية، فقد كانت تعرف بأنها حرب دينية على القبائل الجبلية المسلمة كالشيشان وأنغوشيا وداغستان ولتنصير القوقاز. وقد كان أغلب هذه القبائل سُنّة، مستقلون عن قبضة أي سلطة علمانية ولكنهم بحكم دينهم يدينون للسلطان العثماني كخليفة المسلمين، فخاض الروس حروبا شرسة عليهم، (غارات على القرى وإحراق البيوت والمحاصيل والغابات) لإخضاعهم، فأدت هذه الأعمال الوحشية إلى ظهور حركة مقاومة منظمة، سرعان ما اتخذت طابعا دينيا

جهاديا. وكلما زادت المقاومة زاد الغزو الروسي ذو الطابع الديني، فدمر الروس المساجد ووضعوا قيودا على شعائر المسلمين ومنعوا الحج إلى مكة، واتبعوا ما يسمى اليوم سياسة التطهير العرقي. وتجلى الطابع الديني على الغزوات الروسية للقرم التي كانت تعد للروس مكانا مقدسا حيث تم تعميد فلاديمير الأمير الأعظم لكييف في عام 988 ومن هذا المكان نشر المسيحية للروس في كييف .

الفصل الثاني: قضايا شرقية

أثناء عمليات ترميم مسجد هاجيا صوفيا في عام 1849 اكتشف أحد المعماريين السويسريين في موقع العمل رخاما مطمورا وحينما أزاح عنه ما يعلوه تبدى بألوانه البراقة، وقد كان هذا الرخام في الأصل جزءا من الكنيسة التي بني عليها المسجد قبل الفتح الإسلامي، أعجب السلطان بهذا الاكتشاف وأمر أن يماط اللثام عن باقيه، وانطلق المعماري السويسري بهذا الاكتشاف إلى إمبراطور روسيا طمعا في دعم يحصل عليه لنشر عمله، فأعجبه هذا الرخام البيزنطي، وأثارت أشجانه حيث كانت هاجيا صوفيا أم الكنائس الروسية، والرابط التاريخي بين روسيا وأرثوذكس شرقي البحر المتوسط والأرض المقدسة. وظل أمل استعادة هذه الكنيسة في قلوب القوميين من الروس وزعمائهم الدينيين خلال القرن التاسع عشر، فلقد كانوا يحلمون بغزو القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة لروسيا، للإمبراطورية الأرثوذكسية، التي تمتد من سيبريا حتى الأرض المقدسة. ومن بين كلمات أرشيماندريت أوزبنسكي الذي قاد الإرسالية التبشيرية إلى القدس في عام 1847: "كان قدراً على روسيا منذ الأزل أن تنير آسيا وتوحد السلاف، سيتحد كل أجناس السلاف مع أرمينيا وسوريا وجزيرة العرب وأثيوبيا، وسيمجدون الرب في سانت صوفيا ".

وعلى الجانب الأخر كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح وتخسر أرضا بعد أرض بدءا بخسارتها لصربيا، حتى وصفها إمبراطور روسيا برجل أوروبا المريض، وزاد على ذلك اخفاقها في التوائم مع العالم الجديد، وقد مثلت قبضة رجال الدين (المفتي والعلماء) عقبة كؤود أمام الإصلاح حيث كان شعارهم "حرمة التعامل أو استعارة شيء من الكفار"، فتباطأت الأفكار والتقنيات الغربية في التوغل في أركان العالم الإسلامي: فالتجارة والاقتصاد كان يسيطر عليها غير المسلمين (اليهود والنصارى)، ولم تعرف الطباعة طريقها إلى تركيا إلا في العشرينات من القرن السابع عشر، وفي عام 1853 كان عدد الطلاب الذين يدرسون الفقه والعقيدة الإسلامية في اسطنبول خمسة أضعاف الذين يدرسون في المدارس الحديثة بمناهج دنيوية .

وكان مع الركود الاقتصادي ينتشر الفساد والبيروقراطية والإقطاع، ولكن السبب الرئيسي وراء سقوط الإمبراطورية العثمانية هو تخلفها العسكري عدة وعتادا ونظاما عن الجيوش الأخرى .

وكان أول من أدرك الحاجة إلى صبغ الجيش والبحرية صبغة غربية هو سليم الثالث، فاستعان الترك بالفرنسيين لهذه المهمة حيث كانوا أقل الأوروبيين خطرا على الإسلام لضعف تمسكهم بدينهم. وبدأت حركة مناهضة للإصلاحات في الجيش ورجال الدين، بدأ بتدخل القوى العظمى في ذلك الوقت في شؤون البلاد بحجة حماية الأقليات المسيحية، ولكنهم في واقع الأمر كانت لهم أطماعهم الخاصة، وشيئا فشيئا كانت لهم الكلمة حتى في تعيين الوزراء أنفسهم.

وبدأت خسائر الإمبراطورية تتوالى فثارت اليونان عليها بدعم من روسيا وتلتها مولدافيا، وقابل هذه الثورات الأتراك بقمع أكثر حتى تعاطف العالم مع القضية اليونانية .

وفي عام 1829 أوشكت القوات الروسية على غزو العاصمة التركية القسطنطينية حيث سيطر أسطولهم على البحر الأسود وبدا أن سقوط الإمبراطورية العثمانية قاب قوسين أو أدنى حتى أن ملك فرنسا تشارلز العاشر اقترح تقسيم أراضي الدولة العثمانية بين الدول الكبرى. وتراجعت روسيا عن إنهاء مهمتها بالقضاء على الدولة العثمانية خشية أن تسارع الدول الكبرى في السيطرة على الأراضي العثمانية دونها، فأبقت عليها ضعيفة بدلا من أن لا تنال شيئا .

واستدعت الرغبة في الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية ضعيفة بعض التدخلات لصالح الأتراك، ففي عام 1833 تحدى محمد علي والي مصر السلطان وطالبه بتوريثه عرش مصر والشام، وعندما رفض السلطان سار ابنه ابراهيم باشا في جيش نحو فلسطين ولبنان وسوريا، وكان الجيش قويا مدربا على نظم الحرب الفرنسي، فاكتسح القوات التركية وأصبحت القسطنطينية تحت رحمة القوات المصرية .

يذكر أن محمد علي كان قد قام بتحديث الاقتصاد المصري ووضعه في السوق العالمي كمصدر رئيسي للقطن كما بنى المصانع وأعد جيشا قويا عدة وعتادا أسماه "الجهادية"، وبدا وكأنه صحوة إسلامية بين المسلمين توشك أن تكون إمبراطورية إسلامية جديدة بديلا للدولة العثمانية،

فلجأ السلطان إلى بريطانيا وفرنسا ولكنهما لم يبديا اهتماما لمساعدته، فتوجه إلى إمبراطور روسيا فهب لنجدته لاعتقادهم بخطر الجيش المصري على مصالحهم في الشرق الأدنى، وظنوا أن والي مصر لن يتوقف إلا بعد أن يغزو آسيا الصغرى كلها، ويتحول إلى إمبراطورية إسلامية جديدة.

وكانت بريطانيا ترى أيضا الإبقاء على رجل أوروبا المريض أو بالأحرى علاجه (ببعض الإصلاحات التحررية والدينية وفقا للعادات البريطانية) أولى من القضاء عليه حتى تجد أسواقا لمنتجاتهم، ومواد خام لمصانعهم .

الفصل الثالث: الخطر الروسي

كانت هناك خشية تعم أوروبا جميعها من توسعات الإمبراطورية الروسية في القرن الثامن عشر ومن بأس جيشها وما فعله أمام جيش نابليون، وكانت الصحف والمطبوعات والرسائل السياسية تصور روسيا كتهديد لحريات أوروبا وحضارتها، فكانت صورة روسيا النمطية في ذلك الوقت عبارة عن قوة وحشية عدائية وتوسعية في طبيعتها وخادعة ماكرة في تخطيطها. وكان يظن الجميع أن لدى روسيا مخططها للاستيلاء على الشرق الأدنى بل والعالم. وكان يذاع في ذلك الوقت أنباء عن اضطهاد الروس للكاثوليك في روسيا وبولندا، وبلغ هذا القلق أشده في 1846 حين وردت أخبار عن المعاملة الوحشية التي لاقتها راهبات مدينة منسكMinsk البولندية، حيث أجبرن على إتباع الكنيسة الروسية وحين رفضن تم اقتيادهن مغلولات الأيدي والأرجل والتنكيل بهن منذ 1839، فكن يمنعن من الطعام والشراب لفترات طويلة، ويسكب عليهن الماء البارد في شتاء بولندا المتجمد، ناهيك عن جلدهن حتى مات بعضهن تحت التعذيب. وفي ربيع 1845 تمكن أربعة منهن من الفرار وحكين ما حدث لهن والراهبات اللاتي استشهدن تحت وطأة التعذيب، وسرعان ما انتشر الخبر في العالم الكاثوليكي، واتخذ الأمر بعدا دينيا وذيع بين الناس أن امبراطور روسيا يعمل على تحويل الكاثوليك إلى الأرثوكسية بالقوة، وكان لهذه الواقعة أثرها على فرنسا وانجلترا قبيل حرب القرم .

الفصل الرابع: نهاية السلام في أوروبا

لقد جاء أول تهديد للسلام في أوروبا من قبل فرنسا بظهور إمبراطور جديد عام 1851 مجددا مخاوف لدى القوى الكبرى في ذلك الوقت بعمله على إعادة هيبة فرنسا ونفوذها في الخارج كما كانت أيام عمه نابليون الأول وكذلك إعادة تشكيل أوروبا كأسرة مكونة من أقطار متحررة. وظن الإمبراطور الجديد أنه يمكنه تحقيق هذا الهدف بالاتحاد مع بريطانيا غريم فرنسا القديم، وكانت روسيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن لفرنسا محاربتها لاستعادة عزتها القومية، حيث لم ينس الفرنسيون انسحاب نابليون من موسكو والذي عجل في سقوط الإمبراطورية الأولى لهم، وساعد في مزيد من المذلة والألم الهزائم المتكررة التي تلقوها على أيدي الروس وكذلك الاحتلال الروسي لباريس. وكان الإمبراطور الروسي هو العدو الوحيد للحرية وتطور الأمم الحرة في أوروبا، وهو الوحيد الذي لم يعترف بإمبراطور فرنسا الجديد .

ورأى نابليون أن الصراع مع روسيا في الأراضي المقدسة يعد وسيلة لتوحيد فرنسا بعد انقسامات 1848-1849. ولذلك فقد قام بتعيين سفير كاثوليكي لدى القسطنطينية الذي كان عاملا من عوامل اشتعال الصراع في الأراضي المقدسة مع الروس، وغضب إمبراطور روسيا من تركيا غضبا شديدا لخضوعها للضغوط الفرنسية وعزم على تفتيت الإمبراطورية العثمانية بجيوش يسيرها إلى كل اتجاه في آن واحد فتنال روسيا أراضي نهري الدانوب والدلتا، وتصبح صربيا وبلغاريا دولتين مستقلتين، ويذهب الساحل الأدرياتيكي إلى النمسا، ومصر وقبرص وجزيرة رودس إلى بريطانيا، أما كريت فتكون من نصيب فرنسا، وتتحرر اليونان وتصبح القسطنطينية مدينة حرة تحت حماية دولية، ويتم طرد الأتراك من أوروبا. وبدأ نيكولاس الإمبراطور الروسي جولة جديدة من المفاوضات مع البريطانيين التي ربما تشكل عاملا مؤثرا في أي صراع بين فرنسا وروسيا، ولم ينزعج السفير البريطاني لدى روسيا بهذه الخطط، بل رحب بها، وأرسل إمبراطور روسيا مبعوثا إلى تركيا لمحاولة إلغاء المرسوم الذي أصدره لصالح الكاثوليك واستعادة مزايا اليونانيين في كنيسة القيامة، وأنه إذا عارض الفرنسيون سيطرة اليونانيين على الكنيسة فيضع الروس أسطولا مكونا من أربعمائة ألف جندي تحت تصرف السلطان العثماني. ورغم توعد المبعوث الروسي من عاقبة عدم الرضوخ لمطالب روسيا، رفضها المجلس الأعلى في القسطنطينية، ولم يجد إمبراطور روسيا وسيلة أخرى غير اللجوء إلى الحرب .

الفصل الخامس: حرب زائفة

ولما كان العثمانيون غير متأهبون لحرب حقيقية على روسيا، فقد انخرطوا في حرب زائفة وبعثوا ببعض السرايا للقيام ببعض المناوشات وذلك لتحاشي قيام ثورة إسلامية في العاصمة التركية ولحث الغرب على إرسال أساطيلهم لمساعدة العثمانيين بعد أن قام الروس في وقت سابق بالاستيلاء على أراضي الدانوب والقوقاز التابعة للدولة العثمانية.

وخوفا من خسارة كل أراضيهم في البلقان قرر الأتراك بناء خط دفاعي في الدانوب ومهاجمة الروس في القوقاز حيث يمكنهم الاعتماد على دعم القبائل المسلمة هناك وبذلك يدفعون الروس إلى سحب بعض قواتهم من جبهة الدانوب، وأمام الهزائم التي نالها الأتراك في هذه المناوشات لم تتحرك القوى الغربية، وكانت مسألة الدفاع عن تركيا المسلمة ضد روسيا المسيحية تشكل عائقا للساسة المحافظين من طائفة الإنجيليين وملكة انجلترا أيضا التي كانت تطمح إلى إقامة إمبراطورية يونانية بديلا عن الإمبراطورية العثمانية وكانت تأمل أن يتنصر الأتراك ساعتها. ولكن قام أحد كبار رجال الدين هناك بإزالة هذه العقبات حيث أشار إلى قوانين الإصلاحات التركية كدليل على ليبرالية الأتراك وتسامحهم الديني، بل أثبت بعض زعماء الكنيسة أن الأتراك قد ساهموا في نشر البروتستانتية في الشرق الأدنى، بناء على العمل التبشيري البروتستانتي في الإمبراطورية العثمانية، وعلى هذا فإن الأتراك أفضل للمسيحيين البروتستانت من إمبراطور روسيا الأرثوذكسي الذي منع تداول الإنجيل في أرضه، والقضية هي كيفية حماية النصارى البروتستانت من النصارى الآخرين إذا سيطر الروس على البلقان. وفي إحدى مناقشاتهم العامة عن الحرب التركية الروسية قال أحد المتحدثين أن "التركي ليس كافرا ولكنه توحيديا". وذاع نفس الأمر في الصحافة الفرنسية وأن الخطر الحقيقي لحضارة الغرب ما هو إلا دين روسيا، ولو تم السماح لروسيا بالقضاء على الأتراك فسيبدأ عصر جديد من الاضطهاد الديني ضد الكاثوليك.

وأعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا بعد أن رفضت الأخيرة الانسحاب وقامت بتدمير الأسطول التركي في البحر الأسود.

الفصل السادس: أول الانتصارات للأتراك

تقدم الروس ببطء يهاجمون المقاومة التركية العنيدة في نقاط عدة على جبهة الدانوب ولكنها لم تستطع التغلب على قلاع الأتراك فأقاموا خارجها يشيدون القوارب والجسور حتى يتمكنوا من عبور نهر الدانوب، وعندما شنوا هجمات عديدة على الصفوف التركية في سليستريا سقط الكثير منهم على ساحة المعركة، ومع ذلك واصل الروس حصارهم للمدينة، وكان الفرنسيون والبريطانيون يعبأون قواتهم حينها وينشرونها في جاليبولي لحماية القسطنطينية،

وكانت تهدف روسيا بتقدمها نحو المدينة استثارة الصرب والبلغار الذين يعيشون تحت الحكم العثماني للتمرد عليه، ولكنهم حينما وجدوا عدم جدوى ذلك وواجهوا ضغوطا متزايدة من النمسا رفعو حصارهم وبدأو يخلون الأراضي التي احتلوها في الدانوب (رومانيا حاليا) .

وبدأت القوات الروسية تتراجع أمام الأتراك، وكان في إمكان الفرنسيين والأتراك العودة إلى ديارهم منتصرين وتنتهي الحرب على ذلك، ولكنهم أحسوا أن النصر قد سرق من أيديهم وأرادوا تحقيق هدف عسكري لتبرير حملاتهم وتضحياتهم، وبدءوا يخططون لحرب القرم، مع أن هدفهم من حملتهم كما أعلنوه هو ليس الحفاظ على السلطان والمسلمين في أراضيهم ولكن إبعاد روسيا عنها .

الفصل السابع: معركة ألما

وبدأت الأساطيل الفرنسية والبريطانية في الانتشار في منطقة البحر الأسود، عقب جلاء القوات الروسية من أراضي الدانوب ، ولحماية عملية الإنزال لقوات التحالف قرر قادة التحالف احتلال مدينة يفباتوريا شمال سباستبول. وقد وضع قادة الروس معظم قواتهم على مرتفعات جزيرة الألما لقطع طريق قوات التحالف إلى سباستبول. وبدأت قوات التحالف بالتجمع للقتال وفتح الروس النار على الجانب الأيمن من الجيش حيث القوات البريطانية الذين انبطحوا على الأرض كي يتفادوا نيران العدو، وفي هذه الأثناء قامت فرقة من القوات الفرنسية بتسلق المرتفعات من خلف صفوف الروس، وكانت هذه المرتفعات شديدة الانحدار فأهملها الروس لظنهم استحالة الهجوم من ناحيتها، ولكن كان في صفوف الجيش الفرنسي قوات من شمال أفريقيا قد تمرسوا على الحرب الجبلية في الجزائر، فأصبحت القوات الروسية في مرمى القوات الفرنسية، وبدأت في التقهقر، واستمر القتال حتى خلف 2000 قتيلا من البريطانيين و1600 من الفرنسيين و5000 من الروس .

الفصل الثامن: سباستبول في الخريف

لقد بث تقهقر القوات الروسية الرعب في سكان سباستبول، وبدأوا يستعدون للدفاع عنها رجالا ونساء بحفر الخنادق، وبدأ التحالف في هذه الأثناء بالاستعداد لحصار المدينة، وتقدمت القوات الفرنسية نحو المدينة حتى وصلوا إلى نقطة قريبة من المدينة وبدأوا بحفر خندق تحت غطاء الليل حتى لا يكونوا في مرمى نيران الروس. وبعد نصب المدافع بدأ قصف المدينة ولكنه لم ينجح في إيقاف نيران الروس. وبدأت الثقة ترجع إلى نفوس القوات الروسية بعد مضي اليوم الأول من القتال دون أن تخور قواهم، وقام البريطانيون بتأمين طرق الإمداد وذلك بإقامة ست حصون في بلاكلافا ووضعوا عليها حراسا من الأتراك، فقام الروس بمهاجمة الحصون وأجبروا حراسها الذين تركوا بلا زاد أو ذخيرة كافية على الفرار، فوجه البريطانيون اللوم للأتراك واتهموهم بالجبن، ولكن قلة المؤنة والتدريب كانت وراء فرار الأتراك. واحتفل الروس بالانتصار الذي حققوه في بلاكلافا، وارتفعت معنويات حامية مدينة سباستبول لأول مرة بعد هزيمة ألما. ولم تدم فرحة النصر كثيرا في صفوف الروس حتى تلقوا هزيمة قاسية في انكرمان وأضحى سقوط سباستبول وشيكا .

الفصل التاسع: اللواءان يناير وفبراير

أقبل الشتاء في الأسبوع الثاني من نوفمبر وعمت موجة الصقيع مرتفعات سباستبول مقتلعة خيام الفرنسيين والبريطانيين وأغراضهم حتى الأشجار. وفي البحر تسببت الأمواج العاتية في تحطيم أكثر من عشرين سفينة بريطانية، وفقد المئات أرواحهم وضاع الزاد والذخيرة، وحدث للفرنسيين نفس الأمر ولكنه كان أقل حدة حيث استطاع الفرنسيون تجاوز الأمر أسرع من القوات البريطانية بسبب الإدارة العسكرية الفرنسية التي طلبت من الجنود الاستعداد بارتداء كل ما يستطيعون لمواجهة البرد، على نقيض الجيش البريطاني الذي كان يحافظ على مظهر قواته وزيه العسكري، حتى أن خيام الفرنسيين كانت أقوى وأوسع من خيام البريطانيين. وبشكل عام فقد أظهرت شهور الشتاء مدى تفوق الفرنسيين إدارة ونظاما عن أقرانهم البريطانيين، في الملبس والمأوى والتداوي والأسلوب، حتى في نظام جمع الحطب للتدفئة والطبخ، فبينما كان هناك من يعمل في إعداد الوجبات ويسلمها جاهزة للفرنسيين، كانت تسلم للبريطانيين الأولية كما هي ليتدبروا أمرهم في طبخها كل على حدة. وكانت شعوب القوى المحاربة تتابع في الصحف أخبار المعاناة التي يلقاها الجنود في أرض المعركة جراء الشتاء، وتعتبر هذه الحرب هي أول الحروب في التاريخ يلعب فيها الرأي العام دورا حيويا من خلال الصحف والأخبار التي كان يدعمها الصور والرسوم من أرض المعركة. وكان لدى الروس الفرصة للانقضاض على صفوف الحلفاء الذين أنهكم صقيع الشتاء، ولكنهم آثروا أن يتركوا شهري يناير وفبراير ليقوما بالمهمة مع بعض السرايا الخفيفة التي يوجهونها من حين لحين. وفي الثاني من مارس مات إمبراطور روسيا وتم دفنه في زي عسكري وطبعوا على صدره صليبا فضيا ورسما لكنيسة سانت صوفيا (أيا صوفيا) في القسطنطينية.

الفصل العاشر: ذخيرة المدافع

ذاعت أخبار وفاة نيكولا في لندن وباريس وفي جميع أنحاء العالم، وفرح الناس بالخبر حيث كانوا يعتقدون أن سياسات نيكولا كانت المحرك الرئيسي للحرب، حتى صرحت صحيفة التايمز البريطانية أن وفاة نيكولا تدخل من القدرة الإلهية لعقاب المسؤول الأساسي عن هذه الحرب. وخلف نيكولا ابنه الكسندر الثاني الذي كان أكثر تحررا من أبيه. ولكنه في بداية توليه العهد استبعد عقد أي اتفاقية سلام لا تحفظ هيبة بلاده. ودخلت النمسا الحرب إلى جانب الحلفاء ولم تكن تستهدف إطالة الحرب التي أضرت باقتصادها وسببت في عدم استقرار الأقليات من أصول سلافية، ولكنها كانت تسعى من خلال تحالفها للضغط على بريطانيا وفرنسا للتفاوض من أجل السلام مع روسيا تحت رعاية نمساوية في فيينا، وكانت فرنسا سعيدة بالمساعي الدبلوماسية لتهدئة الرأي العام الفرنسي الذي كان يرى أن فرنسا ذهبت في ركاب انجلترا إلى الحرب. وفشلت محاولات الصلح في فيينا وبدأ الكلام عن شن هجمات جديدة من قبل الحلفاء في الربيع وعولوا على حملات تشنها القبائل المسلمة في القوقاز بقيادة شامل بدعم من البريطانيين الذين كانوا يمدونهم بالسلاح والذخيرة، وأثناء ذلك فكر الحلفاء لتوسيع حملتهم في القرم والاستمرار في قصف سباستبول ومحاصرتها من الشمال بعد أن تبينوا عدم جدوى القصف من الجنوب لقطع الإمداد عنها، كما أدى إنشاء سكة حديدية من بالكلافا إلى معسكر البريطانيين في سباستبول إلى إحداث نقلة نوعية في تحسن الإمدادات، وتعد هذه أول سكة حديد تقام في تاريخ الحروب، وبدأ نقل المدافع الثقيلة ونصبها حول المدينة وشهدت المدينة أعنف قصف في التاريخ حتى هذه اللحظة، واستمر القصف دون توقف لعشرة أيام. ورغم ذلك ظل الروس يقاومون رغم قلة ذخيرتهم، واستسلمت بعض الحصون.

الفصل الحادي عشر: سقوط سباستبول

وعلى مدار تسعة أشهر من الحصار أصاب الإعياء كلا الطرفين وانخفضت الروح المعنوية لدى جنود الحلفاء تحسبا من البقاء في أماكنهم لشتاء آخر، وبحلول الشهر العاشر ازداد الجنود توترا وإعياء نتيجة القصف المتواصل وجراء فقد الرفاق وقلة النوم. وفي نهاية يونيو تأزم الموقف في سباستبول بدرجة شديدة، مع نفاد الذخيرة والطعام والماء، مما دعا جورشكوف للإعداد لعملية إخلاء المدينة، التي غادرها بالفعل أكثر السكان خشية الموت جوعا أو مرضا، حتى الجنود كانوا يفرون منها بأعداد متزايدة خلال شهور الصيف، وبعد أن أدرك إمبراطور روسيا عدم قدرة سباستبول على الصمود أكثر من ذلك أمر جورشكوف أن يقوم بمحاولة أخيرة لكسر حصار الحلفاء، بغية أن يحقق نجاحا عسكريا ليبدأ محادثات السلام مرفوع الرأس، ورغم ضآلة فرص النجاح ورفض القادة في الميدان التفكير في أي احتمال لهجوم لأنه سيكون بمثابة خطة انتحارية، انعقد مجلس عسكري كما أشار الإمبراطور وأقروا الهجوم على القوات الفرنسية والإيطالية موقنين بالفشل. وتقدم الروس مع أنفاس الصباح الأولى ولكنهم قوبلوا بمواجهة شرسة ردتهم رأسا على عقب يجرون أذيال الهزيمة. وأصبح واضحا للعيان أن سقوط سباستبول ما هي إلا مسألة وقت، وبدأ الروس يخلون المدينة ويدمرون وراءهم كل ما لا يستطيعون حمله ويمكن أن ينتفع به الحلفاء مدافع أو سفن حربية، ويضرمون النار وراءهم في كل شيء حتى ظلت الحرائق مشتعلة على مدى أيام وحتى بعد أن دخلها الحلفاء في الثاني عشر من شهر سبتمبر. وابتهج الناس في لندن وباريس بسقوط سباستبول وخرجوا إلى الشوارع يرقصون ويشربون وينشدون الأغاني الوطنية واعتقدوا أنها نهاية الحرب. ولكن إمبراطور روسيا بدأ يفكر في طرق أخرى للاستمرار في الحرب فوجه قواته إلى الحدود الروسية التركية حيث الكرش التي كان يتمركز فيها كثير من قوات الأتراك تحت قيادة بريطانية، وتم له ما يريد من احتلال الكرش عوضا عما فقده في سباستبول. حينها رأى أن الوقت قد حان لعمليات السلام، التي تولى أمرها النمساويون والفرنسيون.

الفصل الثاني عشر: باريس والنظام الجديد

اختيرت باريس مقرا لمحادثات السلام بعد استبعاد فيينا لتشكك البريطانيين من مساعي النمساويين الدبلوماسية منذ بداية الحرب، ولمكانة فرنسا في قارة أوروبا التي زادت إثر الحرب، وكانت المحادثات مستمرة خلال الشتاء حتى وصول الوفود إلى باريس، وكانت معظم نقاط الخلاف قد تم حلها إلا موقف بريطانيا المتشدد حيث أنهم رأوا عدم العجلة في إنهاء حرب لم يحققوا فيها نصرا كبيرا يرضي كبرياءهم ويبرر خسائرهم التي منوا بها على مدى ثمانية عشر شهرا، كما أن الاستيلاء على سباستبول كان نصرا فرنسيا، وهددت بريطانيا أنها ستستمر في حربها إن لم تخضع روسيا لشروطها السابقة. وفيما يخص قضية حماية الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية، فقد التقى ممثلو الحلفاء بالوزير الأكبر علي باشا وفؤاد باشا (مندوب السلطان في مجلس باريس) في القسطنطينية للضغط عليهم لمنح غير المسلمين (بما فيهم اليهود) كامل حقوقهم الدينية والمدنية، وعلى إثر ذلك منح مرسوم أصدره السلطان كامل الحقوق للرعايا غير المسلمين وحق الخدمة العسكرية والمدنية، وعرف هذا بالمرسوم الهومايوني للإصلاحات، والذي اعترف بمجموعة من الحقوق للأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وكان الهدف منه منع أي تدخل أوروبي آخر في الشأن العثماني. واتخذ هذا المرسوم الروس دلالة على نصرهم المعنوي، وتحقيقا لم قامت الحرب من أجله .

وتم اتفاق الأطراف على إنهاء الحماية الروسية على أراضي الدانوب وضمان حرية الملاحة في نهر الدانوب. وإعلان حياد البحر الأسود منطقة حيادية وإجبار روسيا على سحب سفنها الحربية منه ونقلها إلى بحر البلطيق. وكان هذا البند صفعة قوية لروسيا حيث لم تعد قادرة على حماية حدودها الساحلية ضد الأساطيل البريطانية أو غيرها إذا ما دعاها السلطان العثماني. واتفق الأطراف أيضا على استقلال كل

من ولايتي الأفلاق وبغدان (رومانيا حاليا) ضمن حماية الدولة العثمانية، وأمهلت دول الحلفاء ستة أشهر لسحب قواتها من ميناء سباستبول وإعادته لروسيا، كما احتفظ العثمانيون بحق حماية الأراضي الصربية .

وحول البحر الأسود تسببت حرب القرم في استئصال الجماعات الدينية والعرقية، فبدأ عشرات الألوف من اليونانيين يهاجرون إلى جنوبي روسيا، وفي الاتجاه العكسي يهاجر عشرات الألوف من اللاجئين البولنديين إلى تركيا، وفي الجانب الآخر من البحر الأسود عشرات الألوف من المسيحيين الأرمن يهاجرون من الأناضول إلى روسيا عشية حرب القرم خوفا من أن يظنهم الأتراك حلفاء للروس، وأجبرت أعداد أكبر من ذلك بكثير من مسلمي القبائل الأبخازية والقوقاز لهجرة أراضيهم ضمن سياسة استهدفت تنصير أرض القوقاز، فأقاموا المذابح ودمروا البيوت والمزارع لطرد المسلمين من روسيا إلى تركيا، وقد قدرت الأعداد التي هُجّرت بثلاثة أرباع السكان المسلمين، ومن استبقوه كان بغرض الانتفاع منه في الاقتصاد.

ولم تقدم معاهدة باريس تغيرات كبيرة في خريطة أوروبا، فلم تكن النتيجة بالنسبة لكثيرين في هذا الوقت تستحق حربا راح ضحيتها الكثير من البشر.

وعمقت هذه الحرب استياء روسيا من أوروبا، وأحست بغدرهم حين ناصروا الأتراك على روسيا، فهذه أول مرة في التاريخ ينحاز فيه التحالف الأوروبي مع قوة مسلمة ضد قوة نصرانية أخرى .

وإذا انتقلنا إلى القدس محل النزاع الذي دب بين الأطراف الدولية، لم يمض اثنا عشر يوما على توقيع المعاهدة في 14 ابريل 1856 حتى شب النزاع القديم مرة أخرى بين اليونانيين والأرمن خلال احتفال النار المقدسة في كنيسة القيامة، وبدأت الأسلحة تجد طريقها خفية إلى الكنيسة، ولم يجد العسكر إلا التدخل لاحتواء الشغب وضمان سير الطقوس .

الخاتمة: حرب القرم في الأسطورة والذاكرة الوطنية

لم تشهد نهاية حرب القرم احتفالات كبيرة في بريطانيا فقد كان هناك إحباط عام من عقد سلام قبل تحقيق نصر كبير يضارع ما حققته فرنسا في سباستبول وفشلهم في شن هجوم شامل على روسيا، ولم يتم استقبال الجنود العائدين من ساحة القتال بالاحتفالات الرسمية، وبدلا من ذلك أقيمت النصب التذكارية في أفنية الكنائس والمستشفيات والمدارس والميادين لمئات القتلى الذين سقطوا في أرض المعركة. لقد فقدت بريطانيا في تلك الحرب 20813 فردا ما يشكل خمس قواتها التي أرسلتهم إلى القتال .

لقد أحدثت حرب القرم تحولا رهيبا في تصرف بريطانيا نحو جنودها المحاربين، ووضعت الأساس للأسطورة القومية الحديثة التي قامت على فكرة أن الجندي يدافع عن كرامة الوطن وحقوقه وحريته، وقبل الحرب كانت فكرة الشرف العسكري تعرف بالأرستقراطية وتنتقل بالتوارث، وأبرزت هذه الحرب الدور الكبير الذي لعبته الطبقة الوسطى بانخراطهم في مجريات الحرب وتقديمهم النصح والمشورة في الصحافة، فهم المنتصرون سياسيا .

لقد خلفت تلك الحرب أثارا عميقة في الهوية القومية البريطانية وأخذت تتردد في الأعمال الفنية والأدبية لأجيال، على عكس الآثار التي خلفتها في وعي الشعب الفرنسي الذي سرعان ما نسي هذه الأحداث بعد دخوله في حرب على النمساويين في إيطاليا علم 1859. وكذلك كان الحال في إيطاليا لم يكن هناك الكثير من الآثار التي تشير إلى دورالإيطاليين في حرب القرم. أما في تركيا فقد تم إغفال الحرب حتى وقت قريب جدا، فرغم هلاك نصف الجيش التركي في المعركة أو ما يقدر بأكثر من 120 ألفا، لم يشيد في اسطنبول نصب تذكاري للجنود الأتراك، بل أقيم هناك نصب لقوات التحالف الذين قضوا في المعركة. وذلك يرجع إلى أنهم يرونها أنها لا تناسب التاريخ التركي القومي، كما أنها تقع بين عصر ذهبي للإمبراطورية العثمانية قد ولى وولادة حديثة لتركيا المعاصرة على يدي أتاتورك، فكان ينظر إلى

الحرب كسبة في جبين التاريخ العثماني، ونقطة تحول في سقوط الإمبراطورية عندما غرقت في ديونها واعتمدت على قوى الغرب، الذين تبين أنهم أصدقاء غير أوفياء .

عرض وترجمة: د. عبدالحميد عليوة

Abdelhamid Elewa has a Ph.D. degree from Manchester University and works as an associate professor of linguistics and translation in Al-Azhar University in Cairo. He is currently affiliated with Al-Imam University in Riyadh, Saudi Arabia. Dr. Elewa has translated many books including The Bride's Boon, Ibn Al-Qayyim's The Way to Patience and Gratitude and The Major Sins. In addition, he authored many books and papers on translation and linguistics.